التصوف
عقيدة وسلوك

الدكتور
عبد الفتاح أحمد الفاوي
قسم الفلسفة الإسلامية
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الناشر
مكتبة الزهراء
٨ ش عبد العزيز — عابدين
ت : ٣٩١٦٥١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل من ارتقى إلى درجة الإحسان

وهي : « أن تعبد الله كأنك تراه ،

فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

التصـــوف

عقيـــدة ــ وســـلوكا

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد

فالكتابة فى التصوف تكتنفها صعوبات كثيرة من أهمها ما يردده الصوفية من أنه لا يستطيع الكتابة فيه والتعبير عنه الا من كابده تجربة وذوقا ، وأن كتابة الدارسين له غير السالكين طريقه ينقصها أشياء كثيرة من أهمها المعاناة والتجربة .

والتجربة الصوفية تجربة فردية شخصية الى حد كبير وليست كالتجربة فى بقية العلوم تكفى أن يقوم بها شخص ليطبقها آخرون ، ثم هى متغيرة من شخص لشخص وربما عند الشخص الواحد من وقت لوقت .

فكتابة الباحثين من غير السالكين ان تناولت من التصوف شكله وظاهره فهى أعجز من أن تتعمق مضمونه وباطنه .

ومن هنا وجد الافراط والتفريط فى التصوف وفى الحكم عليه ففى التصوف نجد من يبالغ فى العبادات ونجد من يتهاون فيها بحجة أن من تحقق بالحقيقة تخفف من الشريعة ، وتبع ذلك أنك تجد من يرفع التصوف فيجعله ممثلا لمرتبة الاحسان فى الدين ومن يرفضه ويعتبره خروجا عن الشريعة والدين .

والصوفية وان كان منهلهم فى تصوفهم القرآن والسنة الا أن كثيرين منهم لم يكتفوا بهما أو يقتصروا عليهما فنهلوا من مناهل أخرى ظهر أثرها

عليهم واصطبغ تصوفهم بصبغتها فنعت بها فقيل تصوف اشراقى وتصـــوف فلسفى .

ولأن التصوف شديد الخصوصية نعتت طرقه بأسماء شيوخها وتعددت وكثرت بتعددهم وكثرتهم فصرت تسمع عن الرفاعية والشاذلية والتيجانية وغيرها ...

والقرآن والسنة وان كان قاسما مشتركا بين كل هذه الطرق الا أنها تختلف فى نصيبها منه ومدى تمسكها به كما تختلف فى فهمه وتأويله . وان كان الزهد — وهو أول ما عرف من التصوف — أشد تمسكا وتأثرا بهمـــا واصدق تمثيلا للاسلام مما جاء بعده من مراحل .

وانتشر التصوف وكثر رجاله فى البـــلاد المفتوحة وبين المســـلمين من أهلها أكثر مما انتشر بين العرب وفى شبه الجزيرة لأسباب وردت فى مظانها فى هذا المؤلف .

والتصوف ظاهرة أنسانية اكثر مما هو ظاهرة دينية اســـلامية أو مسيحية أو بوذية فالنفس الانسانية وان فطرت على الخير والشر الا أن جانب الخير فيها أظهر وهو فيها أقوى . وكان آدم أبو البشرية يحمـــل نفسا عالمة « وعلم آدم الأسماء كلها » (١). « خـــيرة » امتنعت عن الأكل من الشجرة المنهى عنها حتى غرر به ابليس وقاسمه هو وحواء انه لهمـــا لمن الناصحين (٢) . « ذات حياء » فما ان بدت سوأتهما حتى طفقا يخصفـــان عليهما من ورق الجنة ، ثم هى « توابة » « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » (٣) ، « غير مصرة على المعصية » « فنسى ولم نجد له عزما » (٤) .

---

(١) البقـــرة ٣١ .

(٢) الاعراف ٢١ « وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين » .

(٣) البقـــرة ٣٧ .

(٤) طـــــه ١١٥ .

وأما ما جاء على لسان يوسف عليه السلام فى شأنها فى قوله تعالى « وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء » (٥) فهو من باب التواضع واتهام النفس أو وصف لضعفها فى بعض فتراتها . وقد كان يوسف يعلم براءته وعفته .

واحد بنى آدم عندما قتل أخاه فيما حكاه القرآن ندم على شره « فأصبح من النادمين » (٦) .

فالتصوف بمعنى الطاعة والتقوى من فطرة النفس الانسانية السوية .

والتصوف بمعنى الوصول الى مرتبة الاحسان فى الدين ليس خاصا بطائفة معينة بل هو طريق مفتوح لمن يوفقه الله اليه . طريق يسلكه المتعلم والجاهل والعالم والعامل والزارع والتاجر وليس وظيفة أو مهنة أو شيئا مما يكبر فى صدورهم ، وليس له زى مخصوص أو طقوس معينة الا أداء الفرائض والتقرب الى الله بالنوافل وما عبد الله بأحب مما افترضه على عباده ، وباب النوافل لا حد له « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » (٧) .

وعقيدة الصوفية هى عقيدة أهل السنة لأنهم جماعة من جماعاتهم ولا يمنع من ذلك وجود من خالف منهم فى تصور أو معتقد كقول بعضهم فى الألوهية بالفناء وغيره ونظريتهم فى الولاية وخاتم الأولياء ومغالاة بعضهم فى اثبات الالهام والكرامات لأن ذلك ان وجد فى آحاد منهم فجماعتهم ومجموعهم على الاعتقاد الصحيح بل ان منهم من شجب ذلك وخطأ القائلين به .

وأما ما يذكرونه مما يحدث لهم أثناء سلوك الطريق واجتياز العقبات

---

(٥) يوسف ٥٣ .

(٦) المائدة ٣١ .

(٧) الليل ٧ .

من أحوال ومقامات فينبغي أن تسلم لهم لانها امور تذاق ولا تقاس وتجربة ولا تعرف وسيطرتها على القلب اكثر من تحكم العقل فيها .

لكنا ان سلمنا لهم ذلك فاننا لا نستطيع ان نسلم لهم ما يذهبون اليه في شأن الخرقة والجوع والخلوة وغيرها لان ما ذهبوا اليه فيها اكثر مما دعا اليه الدين واشق والدين يرفض الافراط فيه كما يرفض التفريط ، ولن يشاد الدين أحد الا غلبه .

وللأخلاق في التصوف مكان ومكانة حتى انه حد بها فقيل التصوف هو الخلق ، وقد جاء الصوفية في مجال الأخلاق منهجا وسلوكا وعلما وعملا بما وضعهم جنبا الى جنب مع علماء الأخلاق وفلاسفتها وكان جانب الأخلاق عندهم اظهر من غيره ، وربما كانت سيطرة التصوف على كثير من المسلمين واقبال الناس عليه من أجل ما عرف للصوفية من خلق وما عاشوا به بين الناس من سلوك . وهذا لا يمنع ان يوجد من بعض منهم غير ذلك تشددا او تهاونا فذلك امر طبعي واختفاؤه ادعى للغرابة من وجوده .

وقد حل ببعض الصوفية في هذه الأيام ما قد حل بالمسلمين عامة من تهاون في التمسك بالدين وتراخ في القيام بشعائره وبعد عن روحه وجوهره والاختلاف في درجة ذلك لا في وجوده .

وجاء هذا المؤلف يتناول عدة قضايا في التصوف بالدراسة والتحليل والتعليق والتعقيب مبينا الى اى مدى يتفق ما قاله الصوفية في هذه القضايا مع القرآن والسنة .

وقدم بين يدى هذه القضايا باثارة عدة مسائل تهم التصوف والصوفية من مثل تعريفه والوقوف على أصل مصطلحه وبيان نشأته وعلاقة هذه النشأة بالاسلام او بغيره من الثقافات والاديان ، وموقف المسلمين منه وعلاقتهم به .

أما أهم القضايا التى تناولها فهى : العقائد والعبادات ، وما ذهب الصوفية اليه فى هذا الباب ، وان اعتقادهم فيه لم يخرج عن معتقد أهل السنة الا من شذ فقال بحلول أو اتحاد أو ما شابه ذلك من تصورات غريبة عن الاسلام والمسلمين .

والأحوال والمقامات وحديث الصوفية ادق من أن يوصف وأبعد من أن يحد وقد ورد : « ان لى أوقاتا لا يسعنى فيها الا ربى » كما ورد : « وانه ليغان على قلبى » .

والالهام والكرامات وما أورده الصوفية فى بابهما أبعد من أن يصدق كله وان كان له أصل صحيح وثابت .

والذكر والسماع وهما مما حث عليه الدين : « اذكروا الله ذكرا كثيرا » (٨) « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » (٩) ولكن الصوفية تجاوزوا ذلك بكثير مما استدعى الاعتراض عليهم ورد كثير منه .

والشطحات والدعاوى شجبها شيوخ من الصوفية ولاموا قائليها قبل أن يشجبها غيرهم فهى على أحسن الحالات أسرار يجب أن تحفظ ولا تنشر حتى لا يتهموا بسببها ولا يفتتن غيرهم بها .

وما جاء فى الشيخ والخرقة والجوع والخلوة أقرب الى الابتداع منه الى الاتباع وما اثر منه عن السلف شىء غير ما يتحدث به الصوفية ويدعون اليه .

أما الأخلاق والسلوك فقد كانوا فيها قادة ومعلمين وقدوة ومربين وآثارهم فى هذا الجانب تذكر ولا تنكر .

---

(٨) الاحزاب ٤١ .

(٩) الاعراف ٢٠٤ .

وعرض المؤلف بعد ذلك للعلاقة بين الصوفية وأهل السنة وبين انهم جماعة من جماعاتهم كما أن العلاقة بينهم وبين الفقهاء وان شابها اضطراب أحيانا الا أن العرى كانت وثيقة وكثير من الصوفية كانوا فقهاء .

وبعد . فلم نرد بكتابنا هذا نقدا للتصوف ولا دفاعا عنه وانما قصدنا فقط الى ابراز بعض قضاياه المهمة وعرضها على ما جاء فى القرآن والسنة لنبين الى أى حد التزم الصوفية فى عقائدهم ومبادئهم بما جاء به الدين ، والى أى مدى يمثل التصوف درجة الاحسان فيه .

والله ولى التوفيق ،،،

عبد الفتاح الفاوى

القاهرة — مدينة نصر

بين يدى التصوف

للتصوف — كما لغيره من العلوم — مسائل ضرورية تبحث بين يدى موضوعاته الرئيسية تمهد لها وتلقى الضـــوء عليها ، مثل : تعريفه ، وأصل مصطلحه ، ومصدره ، ونشـــأته ، وموقف المسلمين منه .... الى غير ذلك من المســـائل التقليدية التى لا يمكن تجاوزها .

تعريف التصوف

من العســـير أن نقع على تعريف للتصوف يجمع كل خصائصه ويرضى جميع رجاله — فقد عجز الصوفية — حتى الآن — وغيرهم أشـــد عجزا — عن اعطـــاء تعريف دقيق جـــامع مانع للتصوف ، وكل ما قدموه عبـــارة عن تعـــريفات « جزئية » يركز كل واحد منها على زاوية أو أكثر من زوايا التصوف المتعددة و « شخصية » يعبر كل منها عن وجهة نظر صـــاحبها ويعكس ما يعتلج فى نفســـه ، تختلف من صوفى لآخر ، بل تختلف عند الواحد منهم من وقت لآخر ، لاختلاف طرقهم التى يسلكونها الى الله ، والتى قالوا انها كثيرة بعدد نجوم السماء أو بعدد نفوس السالكين وباختـــلاف أوقات الواحـــد منهم فى « العـــلم » و « العمـــل » و « الذوق » و « الحـــال » و « المقام » وغير ذلك من مبادىء التصوف عندهم .

والمتأمل فى تعريفات التصوف يجـــد أن بعضهـــا يركز على العنصر الأخـــلاقى مثل :

تعريف « الكتانى » (١) (٣٢٢) للتصوف بانه : خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الصفاء . وتعريف القصاب شيخ الجنيد وقد سئل عن التصوف ما هو ؟ فقال : أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام (٢) . وتعريف أبى محمد الجريرى له بانه الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى ، وتعريف غيره بانه الخلق مع الخلق والصدق مع الحق (٣) .

وبعضها يركز على جانب « المعرفة » — المعرفة اللدنية — مثل قول أبى سعيد الحزاز (٤) (٢٨٩ هـ) : الصوفى من صفى ربه قلبه فامتلأ قلبه نورا . وقول معروف الكرخى (٥) (٢٠٠ هـ) : التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق ، وقول ذى النون المصرى (٦) (٢٤٥هـ)

---

(١) أبو بكر محمد بن على بن جعفر الكتانى صحب الجنيد والنورى وأقام بمكة مجاورا حتى الى أن مات ٣٢٢ هـ قال عنه محمد المرتعش « الكتانى سراج الحرم . من كلامه اذا سألت التوفيق فابدأ بالعمل . طبقات الصوفية ٩١ .

(٢) الطوسى : اللمع ٤٥ .

(٣) السهروردى : عوارف المعارف ١٧٥ .

(٤) أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز من أهل بغداد : صحب ذا النون المصرى . قيل انه أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء . طبقات الصوفية للسلمى ٥٣ .

(٥) أبو محفوظ معروف الكرخى . يلقب بالزاهد ، أسلم على يد على بن موسى الرضا من اقواله اذا أراد الله بعبد خيرا فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل . أوصى عند موته بأن يتصدق بقميصه حتى يخرج من الدنيا عريانا كما دخلها عريانا . الحلية ٣٦١/٨ .

(٦) أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى . سأله رجل ذات مرة عن سؤال . فقال له : قلبى لك مغلق فان فتح لك أجبتك وان لم يفتح لك فلا تسألنى واتهم نفسك . الحلية ٣٢١/٩ .

الصوفى : من اذا نطق ابان نطقه عن الحقائق ، وان سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق .

أو على مبدأ الزهد مثل قول « سمنون المحب » (٧) (٢٩٠ هـ) التصوف ألا تملك شيئا ولا يملكك شىء وقول أبى محمد بن رويم (٨) (٣٣٠) التصوف : التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالذل والايثار وترك التعرض والاختيار . وقول الحسن النورى (٩) (٢٩٥) الصوفى هو الذى لا يملك ولا يملك مثل :

وربما نلمح فى بعض التعريفات الاهتمام بابراز علاقة التصوف بالشريعة مثل : « التصوف حفظ شرائع الدين ، وحسن الخلق مع الخلق اجمعين وسلب الارادة لله رب العالمين » (١٢) .

أو قد يشار فيها الى أركان التصوف مثل قول الكلاباذى (١١) (٣٩٨ هـ) وهو بصدد تعريف التصوف أن أركان التصوف عشرة : تجريد التوحيد ،

---

(٧) سمنون بن حمزة الخواص . من أهل البصرة سكن بغداد وتوفى بها . الاعلام للزركلى ١٤٠/٣ .

(٨) رويم بن أحمد بن يزيد من أهل بغداد كان فقيها ومن أقواله : لا يزال الصوفية بخير ما تناظروا فان اصطلحوا هلكوا .

(٩) بغدادى المولد والمنشأ ، خرسانى الاصل ، لم يكن فى وقته أحسن طريقة منه . صحب سريا السقطى وتوفى ٢٩٥ . طبقات الصوفية ٣٨ .

(١٠) تعريف الشيخ العربى بن أحمد الدرقاوى شيخ الدرقاوية الشاذلية فى فاس انظر : التصوف الاسلامى بين الاصالة والمعاصرة ١٨٤ .

(١١) ابو نصر أحمد بن محمد بن الحسين بن الحسن بن على بن رستم الكلاباذى ، وكلاباذ محلة من بخارى وهو من أوائل من ألفوا فى التصوف . من أقواله : كتب أعرفة حلية الصحابة وصفتهم كأنى انظر اليهم فلما اشتغلت بالكتابة للسلطان ذهب ذلك عنى — سير أعلام النبلاء ٩٤/١٧ .

وفهم السماع ، وحسن العشرة ، وايثار الايثار ، وترك الاختيار ، وسرعة الوجد ، والكشف عن الخواطر ، وكثرة الأسفار ، وترك الاكتساب ، وتحريم الادخار (١٢) .

وهناك جملة أخرى من التعريفات وضعها علماء من خارج الطائفة نحو فيها حنوا آخر كقولهم : التصوف مجموعة من الأفكار الاسلامية والنصرانية واليهودية أو الخلاصة الروحية من تلك الديانات الثلاث (١٣) .

وقولهم : التصوف طريقة زهدية فى التربية النفسية يعتمد على جملة من العقائد الغيبية مما لم يقم على صحتها دليل فى الشرع ولا فى العقل (١٤) .

ويلاحظ أن اهتمام معظم هذه التعريفات ينصب على النفس وصفاتها ولا يتوقف كثيرا أمام المظهر واللباس ، لأن ربط قيمة عمل الانسان وحقيقة حاله بالمظهر أمر لا يأبه به الصالحون سواء أكانوا من الصوفية أو من غيرهم . يروى القشيرى فى رسالته أن بعض الصوفية دخل على أحد المتنعمين فسأله عن لبس المرقعة ، فقال ان قلت لبستها من الفقر شكوت ، وان قلت لبستها من اختيار فقد زكيت نفسى ، ولكن عد ذليل لرب جليل يلبس ما يريد .

وربما يفرق بعضهم بين المتصوف والصوفى فيرى أن المتصوف هو المبتدىء والصوفى المنتهى ، والمتصوف هو الشارع فى طريق الوصول والصوفى من قطع الطريق ووصل الى من اليه القطع والوصل والمتصوفة متحمل والصوفى محمول . حمل المتصوف كل ثقيل وخفيف .

---

(١٢) التعرف على التصوف ١٠٨ .

(١٣) الدكتور زكى مبارك : التصوف الاسلامى فى الادب والاخلاق ١/١٦٠ .

(١٤) محمد فهر شقفة : التصوف بين الحق والخلق ٧

وباختصـــار فان رســـالة القشيرى وحلية الأولياء وتذكرة الأوليـــاء وغيرها من كتب التصوف مليئة بمئات الصيغ التى تعرف بالصوفى والتصوف لكنها جميعـــا على اختـــلاف وســـائل التعبير وتشعب أسباب التنـــاول تنتهى الى مقصد واحد هو العزوف عن لذائذ الحيـــاة ونشـــدان صـــفاء النفس والسعى الى الحب الالهى فى نطـــاق السمو الروحى والمجـــاهدة النفسية .

وبعض التعريفات قديمها وحديثها لا تخلو من جنوح الى الغموض (١٥) . أحيانا وتلاعب بالالفاظ يطمس وضوح المعانى أحيـــانا أخرى مع أن التصوف لا يحتـــاج الى كل هذا الغموض اذا عرفناه بأنه مرتبة الاحســـان فى الدين التى تأتى بعد مرتبة الاســـلام والايمـــان .

والتعبير عن التصـــوف بأقـــوال مستغلقة الفهـــم هى التى وقعت بالغربيين الى تسميته بكلمة Mysticism ومعناها الغموض وتسمية الصوفى Mystic ومعناها الغامض الخفى (١) .

وأيا ما يكن فان كل هذه التعريفات وان استطاعت أن تعرف الناس على التصوف فانها اعجز من أن تحـــدد لنا التجربة الصوفية أو تصفهـــا وصفا دقيقا لعجز اللغـــة كما يرى الصوفية عن ذلك .

هذا وسوف يتصل بتعريف التصوف ويعين على التعرف عليه الوقوف على أهـــل مصطلحه .

---

(١٥) اســـلام بلا مذاهب ٤٩٤ .

مصطلح التصوف

كثرت التعليلات وكثر المعللون لمصطلح التصوف فقيل انه مشتق من « الصوف » يقال : تصوف اذا لبس الصوف كما يقال تقمص اذا لبس القميص ، ولبس الصوف كان معروفا قبل الاسلام يرتديه الزهاد والمتعبدون كما لبسه الرسول صلى الله عليه وسلم فيما روى ابن ماجة انه صلى الله عليه وسلم أكل خشنا ولبس خشنا ، لبس الصوف واحتذى المخصوف ، وجاء فى وصف عمر للرسول صلى الله عليه وسلم : لقد — والله — جالستنا ونكحت الينا وواكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك .

واثر عن الصحابة انهم كانوا يلبسون الصوف مثل أبى ذر الغفارى وسلمان الفارسى الذين يعتبرهما بعض الصوفية رائدين للتصوف ، واثر عن الحسن البصرى قوله : أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف ، والبدريون هم الذين حاربوا مع الرسول فى بدر وكلهم يمثلون الصفوة الرائدة من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والأخبار متواترة حول ارتداء أصحاب الرسول الصوف . فأبو عبيدة ابن الجراح يظهر للناس وهو بالشام وعليه الرداء الخشن من الصوف ، ويطلبون منه اصلاح ذات شأنه واستبدال ملابسه لقربه من الأعداء الذين تؤثر المظاهر على معنوياتهم فيرفض قائلا ما كنت بالذى اترك ما كنت عليه فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم (١٦) .

---

(١٦) مروج الذهب ٤١٨/١ .